



أسعدتنا مبادرة الأستاذ الدكتور عبد الباسط بدر التي أطلق جناحيها في مجلة الأدب الإسلامي (العدد ٥٨، من المجلد ١٥، لعام ١٤٢٩ هـ، الموافق ٢٠٠٨ م)، في الورقة الأخيرة بعنوان: (نحو نظرية جمالية إسلامية)، ولأن للموضوع أبعاداً عدة، وزوايا مختلفة، فالدقة المنهجية تقضي بدايةً بتحديد مجالات علم الجمال، أو فلسفة الجمال، والمعروف في الغرب باسم مبحث «الاستطيقا Aesthetics»، ثم الانتقال بعد ذلك إلى كيفية تناول قضاياها على العقيدة الإسلامية وشروطها.

نحو علم جمال إسلامي

د. عبد الرزاق حجاج محمد - مصر

فلسفة الجمال إحدى الدراسات الحديثة التي قام لها في الغرب مع مطلع العصر الحديث شأن عظيم بدءاً من الفيلسوف الألماني «كانط»، لكن فلسفة الجمال عرفت قديماً لدى أفلاطون في كثير من محاوراته، ولدى أرسطو خاصة في كتابه: الشعر أو (الببوطيقا)، ثم عرفت بعد ذلك عند العرب سواء المتأثر منهم بأرسطو مثل ابن قدامة، أو عند غير المتأثرين لا بأرسطو ولا بأفلاطون، مثل عهد القاهرة الجرجاني في كتابه القيم

الشهير: دلائل الإعجاز. ولفلسفة الجمال موضوعان رئيسان تدخل في زمرة كل منهما موضوعات عدة. هذان الموضوعان هما:

أ - إدراك الجمال وتذوقه: تذوق جمال الكون وما فيه من لوحات معجزة، وتذوق جمال التشكيل الفني كما تقدمه قدرات البشر ومواهبهم في مجالات الأدب والموسيقى والتصوير الزيتي والمسرح

ونحت والعمارة، وتلك هي الفنون الجميلة والمختلفة نوعاً عن الفنون التطبيقية، فالفنون الجميلة تطلب لذاتها لا لغرض، ولا لتحقيق منفعة، أو كما عبر الفيلسوف الألماني «كانط» (غرضية بلا غرض)، أي غرضية لتحقيق الاتساق والتناغم، ثم السرور الخالص بغير هدف إشباع مادي أو حسي. والجمال يشارك - بهذا المنحى - القيمتين الآخرين: الحق والخير، فالقيم العليا جميعاً تطلب لذاتها.

في مقالات تالية - إن شاء الله سبحانه وتعالى - سوف نعرض للموقف الإسلامي من أفكار كثير من فلاسفة الفن الأوروبيين عن ماهية الفن وإبداعه، ومعيار تحقيقه للخير والجمال، وعن التزام الفنان بقضايا مجتمعه، أو أن الفنان غير ملتزم وحرية مطلقة كما هو الأمر عند سارتر، وسوف نعرض لمقارنة بين فكرة الصورة (Form) وهي أساس العمل الفني - مثلاً عند كولنجوود وضمويل ألكسندر وبين فكرة التنظيم عند عبد القاهر الجرجاني، وأحسب أن أخطاء كثيرة ترتكب على ساحة النقد الأوربي في العالم العربي بسبب عدم ربط النوع، وهو الأدب بجنسه البني عليه، المبرر عن ماهيته، وهو الفن الجميل بأنواعه المعروفة: الموسيقى، الأدب شعراً ونثراً فنياً، التصوير الزيتي، النحت، المسرح، المعمار.

في مقالات تالية - إن شاء الله سبحانه وتعالى - سوف نعرض للموقف الإسلامي من أفكار كثير من فلاسفة الفن الأوروبيين عن ماهية الفن وإبداعه، ومعيار تحقيقه للخير والجمال، وعن التزام الفنان بقضايا مجتمعه، أو أن الفنان غير ملتزم وحرية مطلقة كما هو الأمر عند سارتر، وسوف نعرض لمقارنة بين فكرة الصورة (Form) وهي أساس العمل الفني - مثلاً عند كولنجوود وضمويل ألكسندر وبين فكرة التنظيم عند عبد القاهر الجرجاني، وأحسب أن أخطاء كثيرة ترتكب على ساحة النقد الأوربي في العالم العربي بسبب عدم ربط النوع، وهو الأدب بجنسه البني عليه، المبرر عن ماهيته، وهو الفن الجميل بأنواعه المعروفة: الموسيقى، الأدب شعراً ونثراً فنياً، التصوير الزيتي، النحت، المسرح، المعمار.

ولا شك أن دراسة أنواع الفنون الأخرى غير الأدب عن طريق فلسفة الفن أمر معين كثيراً لفهم الأدب، وإدراك خصوصيته، واختلافه عن العلم والفلسفة. وسوف نجد في الفكر الأوربي كثيراً مما نعده تجاوباً مع صوت الفطرة، ويحقق لقاءً وتشابهاً مع المعالجة



أما الفنون التطبيقية فهي فنون تحقق - بلا شك - مسحة جمالية، لكنها تحقق في الوقت نفسه أغراضاً ومنافع بصورة مباشرة وواضحة، وهنا يقوم التعليم والتعلم، وتقل خصوصية الموهبة، وقد تزداد الغرضية فتختفي الجمالية تماماً.

ب - التشكيل الفني، وما يتعلق بذلك من قضايا مثل دور عقل الفنان، ودور المادة المستخدمة (الألوان مثلاً، وهي أداة الشعر والنثر الفني)؛ في عملية التشكيل، وتحقيق المتعة الجمالية، والوهم - أو الإيهام الفني - وهو مختلف تماماً عن الوهم المعرفي، الإيهام في الفن مطلوب، أما في العلم والمعرفة فهو مرفوض.

نستطيع من الثقافة الجمالية - أعني تحديداً - معرفتنا بأفكار فلاسفة الجمال أن نقد مقارنات، وأن نقيم حواراً متقبلين ورافضين، حسب ما تمليه علينا مطالب عقيدتنا، وحسب ما يفيدنا به القرآن الكريم والحديث الشريف، سواء في



ومناظر الزهور والورود، والزرع مخضراً ومصفراً، وسواء كنا أمام علم النفس، أم علم الجمال الإسلامي؛ فعلينا أن نتفهم موقف القرآن الكريم من النفس، وحديثه عن شموليتها ورحابتها حتى إنه يصعب حصر نشاطاتها.

يقول الفخر الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ (الشمس)، تسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة والمفكرة^(١)، ثم يقول: إن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى^(٢) فعلاً ... إن النفس بقواها وفاعليتها المتعددة داعية إلى تأملها، والتوقف كثيراً عندها، هي المتذوقة لجمال الكون والأعمال الفنية كليهما، كما أنه المتجهة إلى الإبداع، أشار الرازي إلى المخيلة، وكذلك فعل (كانط) في العصر الحديث، لقد عرّف الحكم أو الإدراك الجمالي بأنه يحدث نتيجة لالتقاء فاعليتين: فاعلية



إيمانويل كانط

الفهم، وفاعلية الخيال.

لا بأس من تقبل تعريف (كانط)، لكن تجب الإشارة إلى أنه لم يكن إلى جوار هذه الذاتية بالبعد الموضوعي، وبالشروط القائمة موضوعياً في الشيء الذي تصدر عنه حكمنا بأنه جميل، وأصبح (كانط) مسؤولاً عن رأي في فلسفة الجمال يقول: إن إدراك الجمال أمر ذاتي، أي إنه أمر يتوقف على الشخص المدرك... لم يُعن (كانط) بمسألة الإبداع الإلهي، لأن الألوهية

الإسلامية لقضية الإبداع الفني. أما ما يختلف مع عقيدتنا، وهو مختلف مع الفطرة أساساً؛ فسوف نتوقف أمامه في نقاش عقلي موضوعي. نبدأ الآن بحديث القرآن الكريم عن جماليات الكون في الزروع والنباتات والأرض والسماء والجبال والظل ... إلخ.

ولأن المقارنة هي أفضل طريق للدراسة أولاً، ولبيان الفضل والتميز ثانياً؛ فسوف نعرض لموقف بعض الفلاسفة الأوربيين من جمال الطبيعة، وهو ما يتضمن موقفهم من موضوع الخلق والإبداع الإلهي، وسوف تظهر لنا ولغيرنا رحابة وإعجاز القرآن الكريم، وشمولية ما يحبونا به من فكر. وأؤكد لقارئ الأدب ونافذه أن تذوق وإدراك جمال الطبيعة من ناحية، ومعرفة الأحكام والنظريات التي ذكرت عنه من ناحية أخرى هي أمر مفيد لهما كثيراً في تعاملهما مع النصوص الأدبية. ما إن تشرع الحديث عن الإدراك أو التذوق الجمالي حتى يحضرك للوهلة الأولى جمال الكون، ويتأخر قليلاً عن جمال الأعمال الفنية، ذلك لأن للطبيعة جمالاً باهراً معجزاً، وهي به ملهمة للفنانين جميعاً - على حد تعبير رسكن - ولنعالج الأمر في نقاط محددة.

١- الجانب الذاتي: بداية أذكر أن الموقف

الإسلامي من الجمال في الطبيعة: موقف يجمع بين الذاتية والموضوعية، موضع إدراك الجمال وتذوقه هو النفس والمخيلة، والمخيلة فرع من فروع النفس، إذ الإدراك الحسي يرسل للنفس المعطيات الحسية، وهي التي تتذوق، وتستشعر الجمال في لوحات الفلق والشفق، وانعكاس أشعة الشمس الهادئة على صفحة الماء،

أساساً عنده مسلمة، إنها تبدو وكأنما اضطره إليها ما رآه من ضرورة قيام الأخلاق عليها.

فما هو الموقف الإسلامي؟

يقف الإسلام دائماً إزاء كل الموضوعات موقفاً واقعياً، فلا هو يضحى بالفرد من أجل المجتمع ولا بالمجتمع، من أجل الفرد، ولا بالحرية من أجل الالتزام بالآخرين، ولا بحقوق الآخرين من أجل حرية الفرد، وهو في الحكم الجمالي يجمع بين الذاتية والموضوعية. بمقتضى الذاتية: ندرك بأسماعنا وأبصارنا وبالروح والفؤاد الإحساسات الجمالية، يقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾ (٦٩) (البقرة)، فهي صفراء، وهي فاقعة اللون تحمل معها خصائص جمالها وبعثها للسرور، لكن لو لم ينظر إليها ناظرون فمن تسر؟ إنها تسر الناظرين إليها من بني الإنسان، ونقرأ: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (١٠٨) (الأعراف)، وتلك هي يد موسى عليه السلام وهو أسمر اللون. ولقد زين ربنا - وهو أحسن الخالقين - السماء للناظرين إليها،

ومعنى هذا أن الحق سبحانه قد حكم بأن السماء مهما ارتفعت فإن رؤية نجومها وكواكبها وما فيها من جمال وزينة أمر متاح ممكن للناظرين الراضعين رؤوسهم في تأمل العابدين الموحدين: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ (١٦) (الحجر)، وبعثنا ربنا على التأمل: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦٠) (ق).

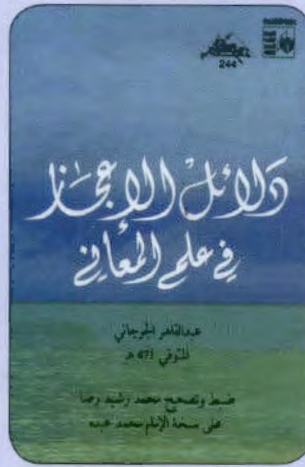
وترد كلمة (لكم) في القرآن الكريم أكثر من مرة إعلاءً من شأن الذات، وتبهيها على التأمل، فما هي

الأنعام يصفها الحق سبحانه بأن خلقها جميلة لنا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (٦) (النحل). وذلك عقب قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥) (النحل). فكان الجمال وتعدد الألوان على جلودها والأصوات منها أمراً جديراً بـ (لكم) خاصة مستقلة عن (لكم) للمنفعة والوظيفية. يقول الآلوسي عن الجمال وهو أمام هذه الآية من كتاب الله: (ولكم فيها) مع ما ذكر من المنافع الضرورية جمال وزينة في أعين الناس، وعظمة ووجاهة عندهم، والمشهور إطلاقه على الحسن الكثير، ويكون في الصورة بحسن التركيب، وتناسق الأعضاء وتناسبها، وعن تعيين الوقتين: (الرواح) و(السراح) يقول: لأن ما يدور عليه أمر الجمال من تزين الأتنية، وتجابوب ثغائها ورغائها؛ إنما هو عند الذهاب والمجيء في ذينك الوقتين^(٣).

أما الدواب فلنا منها زينة، قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨) (النحل). والأنبياء

والرسل بشر لهم أن يتمتعوا بالحلال الطيب، وبزينة الحياة الدنيا، وهذه الزينة عندهم مطية لذكر الله: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠) اذ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٢١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٢٢) رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْعًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٢٣) (ص).

والمقصود بالصافنات الجياد هنا وصف الخيل بالفضيلة والكمال حالتي وقوفها وحركتها.





ألوان الجدد التي في الجبال: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾ (فاطر)، من راحة للنفس يقول: (فالنفس تبتهج بما كان من الأجسام له اللون الأحمر والأخضر والأصفر، إما بسيطاً أو مركباً بعضها من بعض. فنظر هذه يوجب راحة النفس، ولذة القلب، وسرور العقل، ونشاط الذهن، وتوفر القلب، وانبساط الروح، وإنما قلنا ذلك لأنها ألوان مشرقة نيرة، فالنفس لإشراقها ونورانيتها تميل إلى ما ناسبها، ومن أحسن ما قيل: العينان طاقتان للنفس^(٥).

أذكر في مجرد إشارة تمسكاً بالإيجاز أن الأدب العربي حفل بالقصائد المعبرة عن جمال الأنعام والدواب، أذكر من ناحية أخرى أن الاهتمام بمشاهدة جماليات الطبيعة يوقظ مكان من الموهبة الأدبية، ويمنع الاستثارة الفنية اللازمة للتصوير أو بالشعر، وأرى أن على المدارس أن تحبب التلاميذ بالرحلة والخروج المنظم إلى جماليات الطبيعة، فكم من موهبة في الشعر أو التصوير لم تتعش براعمها في نفس أصحابها! ولم تزهر بسبب إغماض عينيها وإغضاء سمعها عن لوحات الجمال المنبثة في الكون!

اللوحات الفنية التي عبر بها رساموها عن شعورهم بالربيع مختلفة كل منها عن الأخرى، وقصيدة البحري مثلاً عن الربيع مختلفة تماماً عن قصيدة الصنوبري، لكن الاختلاف الأكبر واقع بين الربيع نفسه، وكما هو في الخارج وبين الأعمال الفنية المتلمذة على يديه، ولولا الربيع الخارجي لما كان أي ربيع لا في شعر ولا في لوحات.

نتنقل إلى البعد الموضوعي:

أعني قيام الجمال موضوعياً خارج الذات، وذلك راجع إلى قصيدة الخلق الإلهي للجمال في السماء والجبال والزرع والأنعام.. إلخ، فهذه القصيدة حققت

أما حال وقوفها فوصفها بالصفون، وأما حال حركتها فوصفها بالجودة، يعني أنها إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها على أحسن الأشكال، فإذا جرت كانت سراعاً في جريها^(٦).

رزقنا الحق سبحانه أنواعاً من الجماليات، وضروباً من الصور الحسنة بدءاً من صورنا نحن: ﴿وَصَوَّرَكُمْ



فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ (٦٤)﴾ (غافر)، ويقف جمال المخلوق على رأس الطيبات.

هذا أحد مفكرينا القدامى شرف الدين أبو نصر محمد بن أبي الفتوح البغدادي - وشهرته ابن المرة - يفتن إلى ما تحدثه الألوان - ألوان الفاكهة مثلاً أو

أقام الحق سبحانه مخلوقاته على موازين دقيقة فأحسن خلقه، وسوى فأبدع تسويته، وجاءت المخلوقات جميعها جميلة، فلا جمال بغير موازين: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) (القمر)، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) (الرعد)، ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَنْقَبْنَاهَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (١٩) (الحجر).

فالجميل لا يكون جميلاً إلا إذا كان متضمناً للاتساق، والموضوعات الجميلة لأنها مخلوقات بمقاييس وأوزان ونسب وأبعاد مقدرة تقديراً، بل إن الذات الإنسانية

موزونية واتساقاً وتناغماً قام بها وعليها الجمال، فالجمال في الكون مقصود قصداً ولذاته، وليس ناجماً عن الوظيفية أو النفعية كما ذكر الرازي وهو إزاء وصف الحق سبحانه: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ (٦) (الصافات)، بالرغم من مضيه هو نفسه في شرح الآيات القرآنية التي تصور الجمال في الكون في إحساس جمالي راقٍ.

ولنقرأ الآن بقية نص شرف الدين البغدادي: (ولم يخلق الله شيئاً من الأشجار والثمار والأنوار أسود لحكمته وعلمه أنها ردية النفس، مكدره للأرواح، والغرض بسطها وتفريحها، فخلق المناسبة ورفض المضادة لها؛ وانظر إلى حكمته كيف جعل هذه الألوان الأربعة المذكورة: الأصفر والأبيض والأحمر والأخضر؛ في أعظم الأجساد وأشرفها وأبهجها وأحسنها منظراً وهي الذهب الأصفر، واللؤلؤ الأبيض، والزمرد الأخضر، والياقوت الأحمر، ولم يجعل شيئاً من الأحجار أعز منها، ولا أشرف، وجعل غاية كل واحد منها أن يكون بهذا اللون المذكور، فتبارك الله أحسن الخالقين^(١)).



أو النفس في قدرتها على التدوق الجمالي؛ إنما تمتلك إحساسات موزونة من بينها الإحساس الجمالي، فالذاتية والموضوعية يلتقيان، في الداخل والخارج، النفس المتذوقة والأشياء الجميلة، وهذا درس لنا في إنشاءاتنا الجميلة، وكل مخلوقات الله الخالق سبحانه تجمع بين الجمال والنفع، وقد أفاد الناس من هذا الدرس كثيراً ليس في الفنون التطبيقية وحدها، وإنما في الفنون الجميلة جميعها. خذ مثلاً ذلك الفن الذي لا يكاد بعضنا يصدق أنه فن جميل، وليس تطبيقياً،

هذه الطبيعة الزاخرة بالجمال، والزاخرة في الوقت نفسه بآلاف الحقائق والمعادلات، حقل خصب لكلال الرجلين الفنان والعالم، وهي أستاذة الفنانين جميعاً، عنها يأخذون الألوان والضوء والظل، وعنها يتلقون دروس كيفية تحقيق التوازن والتناسب، ونصائح وسكن للرسامين بالاستماع إلى الطبيعة، وعدم مخالفتها، والاكتفاء بمجرد محاكاتها معروفة في كل كتب تاريخ الفن وفلسفته. وإن كنت لا أوافقه على دعوته إلى مجرد المحاكاة.



(شاء الله سبحانه بقدرته ولطفه وحلمه أن يخلقه)
- أي النطفة - على شكل حسن مستقيم معتدل تام
حسن المنظر والهيئة^(٧).

لقد خلق الله كل شيء منكباً على وجهه، أما
الإنسان فقد خلقه ربه مستوياً، وله لسان ويد وأصابع
يقبض بها. خلقه ربه مزيناً بالعقل، مهذباً بالتمييز،
يتناول مأكوله بيده.

نعم كم هي لوحة جميلة: راحة كل منا يمينه أو
يسراه! وانظر إلى الأصابع وما فيها من خطوط ونسب
وأبعاد وتنوع!.

من غصن واحد تخرج خمس ريحانات،
وفي كل أصبع ثلاث عقلات، ثم انظر إلى
العيون: العينان تتحدثان معاً، وإن صمت
اللسان فهما تعبران، ترسلان إشارات
وإيماءات تفضان وتطرفان وتفتحان.
وبالخيران دارون وقد جعل الإنسان تطوراً
لأعلى فصيلة من الشمبانزي، هو محاصر
بين حديث ابن كثير خاصة قوله: (وأصابع
يقبض بها مهذباً بالتمييز)، وبين نظرية
أدولف بورتمان، عالم أحياء أي أنه من
تخصص دارون، وإنما جاء في القرن
العشرين ليعلن في نظريته عن «جمال

الكائنات الحية» معارضة الوظيفة عموماً، ويركز على
جمال الإنسان وتميزه بصفة خاصة.

ثم ارفع رأسك من الإنسان إلى السماء فوفا،
ولعلك مثلي لم تكن ملتفتاً إلى جماليات الكون
قبل معرفتك بما ذكره القرآن الكريم عنها. ونحن
إزاء السماء نقرأ قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّا زَيْنًا
السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٦)﴾ (الصافات)،
وقوله تعالى: ﴿وَزَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ
وَحِفْظًا (١٢)﴾ (فصلت)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

أعني فن المعمار، إنه أوضح مثال للجمع بين الجمال
والنفع، إننا نسكن بالفعل ذلك البيت الجميل الذي
قضى معماري متذوق وقتاً كافياً لإخراجه شبيهاً بقطعة
الموسيقى الخالصة، فجعلنا نشعر أمامه - كذلك -
ونحن بداخله بالإيقاع، والنسبة والتناسب، والكتلة
والفراغ، والمكان والزمان، ويشعرنا أيضاً بما نسميه
الطابع الإنساني للمعمار، أي أن القطعة المعمارية تبدو
وكأنها حية تنبض، أو كأنها هادئة وقورة، أو كأنها جليلة
تشعرك بالوقار، وأشير أيضاً إلى أن بين المعمار وبين



النص الأدبي صلة وثيقة، فكلاهما إنشاء على أسس
وموازين، وكلاهما مستمدان من التأمل في مخلوقات
الله الجميلة.

الخالق سبحانه وتعالى عليم بحبنا للجمال،
فمنحنا الجمال في كل مخلوقات صورنا فأحسن
صورنا، خلقنا في أحسن تقويم، ولتقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا
الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ
فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)﴾
(الانفطار). ماذا قال مفسرنا الكبير ابن كثير؟ قال:

الأرض وخلوها عن النبات، ثم إحياء الله تعالى إياها بالمطر، وانقلابها من الجدوبة إلى الخصب وإنبات كل زوج بهيج... شبه هذا كل بحال شخص كئيب كاسف البال، رث الهيئة، لا يؤبه به، ثم إذا أصابه شيء من متاع الدنيا وزينتها تكلف بأنواع الزينة والزخارف فيختل في مشيته زهواً فيهتز بالأعطاف خيلاً وكبراً، فحذف المشبه به واستعمل الخشوع والاهتزاز^(١).
إن الألوان في تعددها وبهائها مصدر أساسي من مصادر الجمال سواء جمال الطبيعة، أو جمال الأعمال



الفنية، والأدب ليس ببعيد عن تصوير الألوان، وإنما هو يجسدها في النص الشعري أو في العمل النثري الجميل إما متأثراً بها هي نفسها كما تمثل في الخارج، وإما متأثراً بأعمال فنية عبرت بالريشة أو بالقلم، بالريشة تصويراً انطباعياً أو تجريبياً، وبالقلم شعراً أو نثراً، فالفن يخرج من أعطاف الفن أو من مجالي الطبيعة أو منهما معاً - ولا حرج على فضل الله.

ولقد احتقل القرآن الكريم بالألوان تعددها وبهائها احتفاً كبيراً، ومن لا يلتفت إلى الطبيعة لمشغل أو قلة

جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴿ (الحجر).

روي عن ابن عباس قول وهو أمام قول الحق سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧)﴾ (الذاريات) ذات الحبك أي ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء.

وتأمل في تأثير جمال السماء على قلم الأديب، خذ مثلاً حديث الأستاذ سيد قطب وهو أمام قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٦)﴾ (الصافات)، يقول: «والسما

وتاثّر الكواكب فيها أجمل مشهد تقع عليه العين، ولا تمل طول النظر إليه، وكل نجمة توصوص بضوئها، وكل كوكب يوصوص بنوره وكأنه عين محبة تخالسك النظر، فإذا أنت حدثت فيها أغمضت وتوارت، وإذا أنت التفت عنها أبرقت ولمعت، وتتبع مواقفها، وتغير منازلها ليلة بعد ليلة، وأنا بعد أن متعة نفسية لا تملها النفس أبداً»^(٨).

وماذا بعد موزونية السماء؟ تأمل مباحج الأرض، واستمع بإصغاء إلى تعبير: زوج بهيج: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧)﴾

(ق)، وترد كلمة (بهجة) في النمل: ﴿أَمْنَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٠)﴾ (النمل). وما أجمل إضافة بهجة إلى «ذات»، وكأن الحداثق كلها عينها، ذات، بهجة.

وأمام قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)﴾ (فصلت)، يقول الألوسي: (شبه القرآن حال جدوبة



الزهرة هي القيام بنقل اللقاح لتنشأ الثمار، وهكذا تؤدي الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها^(١٠).

والثمار معرض بديع الألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسامين في جميع الأجيال، فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر، بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد، فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شيء من اختلاف اللون^(١١).

وفي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددتها، بل إن فيها أحياناً ما يكون على شكل بعض الثمار وحجمها^(١٢).

ولتعدد الألوان دلالة على القدرة الإلهية، يقول الرازي: جُددٌ بيضٌ؛ أي مع دلالتها بنفسها هي دالة باختلاف ألوانها، كما أن إخراج الثمرات في نفسها دلائل واختلاف ألوانها دلائل^(١٣).

الموضوعات الجميلة جميلة لأنها مخلوقة بمقاييس ونسب وأبعاد مقدرة تقديراً، كما أخبرنا القرآن الكريم، كذلك الذات الإنسانية في قدرتها على التذوق الجمالي تمتلك إحساسات موزونة من بينها الإحساس الجمالي، ولولا أن الكون موزون ومنظم ومقدر.. ولولا أن دوافع النفس كذلك منظمة وموزونة في أصل خلقتها؛ لما أمكن لأي علم مادي أو إنساني أن يصل إلى قياسات، وفيما يتعلق بعلم الجمال استطاع (شارل لالو) أن يقدم استطبيقاً تجريبية تتضمن المناهج المعروفة باسم السيكوفيزية؛ أي النفسية المادية لقياس الشدة الذاتية والنوعية لإحساسنا عن طريق قياس مثيراتها، لأن هذه المثيرات موضوعية وكمية، ولذلك يمكن قياسها، كذلك بحث في قياس شدة اللذة الاستيطيقية (الإحساس بالجمال) الباطنية الشخصية عن طريق تجارب منظمة تنظيماً منهجياً^(١٤).

ذوق يجد القرآن الكريم يوجه إليها توجيهاً ويدفع نحوها دفعا، في سورة فاطر نقرأ قول ربنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَابِيٌّ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ



غَفُورٌ (٢٨)﴾ (فاطر). «إن عنصر الجمال يبدو مقصود قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه، ومن كمال هذا الجمال أن وظائف الأشياء تؤدي عن طريق جمالها. هذه الألوان العجيبة في الأزهار تجذب النحل والفراش ووظيفة النحل والفراش بالقياس إلى

أخطاء فلاسفة وأصاب علماء الفيزياء في القرن العشرين:

أو المستمع لأصوات البلباب وخرير الماء؛ أي أنه ليس صفات موضوعية. نجد هذا لدى ديكارت وسبينوزا، وبصفة عامة حتى الفلاسفة الذين يؤكدون في فلسفاتهم الوجود الإلهي لا يتوقفون عن الخلق والإبداع الإلهي، ومن أبرز أخطاء (كانط) في نظريته الجمالية أن الغائية عنده باردة ساكنة لا تقدم دليلاً على الوجود الإلهي، وإنما هي غائية ذاتية صورية. المقصود بالغائية الدلالية على النظام والاتساق القائم في الكون، الغائية الحقيقية تنصرف إلى الخارج وجمال الكائنات موضوعياً، دون أن يعني ذلك إنكار الذاتية وفضل النفس أو الروح.

وهذا مثال آخر: جون ديوي لا ينتقل في كتابه «الفن خبرة» من جمال الطبيعة إلى الوجود الإلهي يقول في كتابه هذا: (ليس أدل على اندماج العنصر الجمالي في صميم الطبيعة من هذه الخبرة الممتازة التي عبر عنها فنان من الطراز الأول هو (و.ه. هيدسون) في قوله: إنني أشعر حينما تختفي عن ناظري صور الأعشاب الحية النامية، وحينما تتباعد عن سمعي أصوات الطيور المغردة وشتى الأصوات الرقيقة العذبة: أنني لم أعد حياً بمعنى الكلمة) (١٦) ■

يقوم الجمال في القرآن الكريم دليلاً حياً على الوجود الإلهي، ومؤشراً إلى العناية الإلهية، ثم يجيء القرن العشرين وعلى عرصات العلم في الغرب نجد علماء فيزياء يؤكدون الوجود الإلهي من جمال واتساق ونظام الكون، وهو كذلك يتحدثون عن بساطة النظريات العلمية وجمالها، ويتحدث الرياضيون كذلك عن جمال المعادلات الرياضية. يقول الفيزيائي جورج تومسون: إن المرء يستطيع أن يقدم نظرية أو عدداً كبيراً من النظريات لتفسر حقائق معروفة، بل للتنبؤ بحقائق جديدة أحياناً، والجمال هو الفيصل (١٥)، ويعلن أينشتاين: أنه لا علم من غير الاعتقاد بوجود تناسق داخلي في الكون.

فالعالم الحديث يؤكد الموضوعية التي احتفل بها القرآن الكريم كثيراً.

أما الفلاسفة الأوروبيون في العصر الحديث فيميلون إلى النظرة القديمة التي ترى أنه ليس للمادة خواص كمية كالوزن والحجم والشكل والعدد.

أما الجمال فهو ليس من جملة هذه الخواص، لذلك فهو خاصية من خواص المراقب، أي أمر ذاتي يتعلق بالشخص المشاهد، المشاهد للوحات الطبيعية

الهوامش:

- (١) الرازي (التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب) مجلد ١٦، جزء ٢١، ص ١٩٣.
- (٢) المرجع السابق، ص ١٨٩.
- (٣) الألوسي (روح المعاني) تفسير سورة النحل.
- (٤) انظر تفسير القرطبي الجزء السابع، ص ٥٦٣٦ - ٥٦٣٧، والرازي (مفاتيح الغيب)، ص ٢٠٣/٢٠٤، ومختصر تفسير الطبري المجلد الثالث، الجزء ٢٦.
- (٥) شرف الدين البغدادي (ابن المرة): مفرج النفس. نقلاً عن بشر فارس
- (٦) شرف الدين البغدادي، مرجع سابق.
- (٧) ابن كثير، جزء ٤، ص ٤٨٢، ويذكر القرطبي في الجامع لأحكام القرآن الكريم (قراءتين: (فعدلك) و(فعدلك): بتشديد الدال وتخفيفها. الجزء ٣٠، ص ٨٧، دار الفكر.
- (٨) سيد قطب (في ظلال القرآن)، ص ٢٩٨٣.
- (٩) الألوسي، (روح المعاني) جزء ٢٤، مجلد ٨، ص ١٢٦، دار الفكر ١٩٨٣م.
- (١٠)، (١١)، (١٢) سيد قطب (مرجع سابق)، ص ٢٩٤٣/٢٩٤٢.
- (١٣) الرازي، (التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب)، جزء ٢٥، مجلد ١٣، ص ٢٠.
- (١٤) شارل لالو، (مبادئ علم الجمال الاستطيقا)، ترجمة مصطفى ماهر، الألف كتاب الأولى.
- (١٥) روبرت أغروس (العلم في منظوره الجديد)، ص ٤٦، عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٣.
- (١٦) جون ديوي، (الفن خبرة)، ترجمة د. زكريا إبراهيم، ص ٥١.